قصيدة الناشئ الأكبر
في مدح النبي ونسبه

للدكتور يوسف حسن بكار

اولا : مذكرات عن الناشىء الاكبر وقصيدته

١ ــ الناشىء : سيرته ، علمه ، شعره .

ــ ١ ــ

الناشىء الاكبر (١) ، هو ابو العباس ، عبد الله بن محمد ، المعروف بابن شرشير (٢) . لُقّب بالناشىء ، لأنه « دخل مجلسا فيه اهل الجدل ، فتكلم فتى حديث السن على مذهب المعتزلة ، فجوّد وقطع من ناظره ؛ فقام شيخ منهم فقبّل رأسه ، وقال : لا أعدمنا الله مثل هذا الناشىء أن يكون فينا ... واستحسن ابو العباس هذا الاسم ، فلُقّب به (٣) » . ولد ابو العباس بالانبار وفيها نشأ . اقام ببغداد مدة طويلة ، ثم خرج الى مصر فنزلها الى ان مات عام ٢٩٣هـ . زعم المرزباني ان سقوطه ببغداد كان سبب ذهابه الى مصر ، وادعى انه « كان متهوّسا شديد الهوس » ، وقال : « وقد قرأت بعض كتبه ،

---

(١) وهناك الناشىء الاصغر ، أبو الحسن علي بن عبدالله بن وصيف الحُلاّ (لانه كان يعمل حلية من النحاس) . ولد عام ٢٧١ وتوفي عام ٣٦٥ أو ٣٦٦ هـ ببغداد . كان متكلما بارعا وشاعرا مجيدا خاصة في قصائده في آل البيت

(٢) في الفهرست : المعروف بشرشير . وشرشير طائر يصل الى الديسار المصرية من البحر في الشتاء ، وهو اكبر من الحمام بقليل

(٣) الفهرست ٢١٧

نعلتني على هوسه واختلاطه ، لانه اخذ نفسه بالخلاف على اهل المنطق والشعراء والعروضيين (٤) وغيرهم ، ورام أن يحدث لنفسه اقوالا ينقض بها ما هم عليه فسقط ببغداد ، فلجأ الى مصر ، فشخص اليها ، واقام بها بقية عمره » (٥) .

وقد يكون من عوامل تركه بغداد وشخوصه الى مصر ايضا شيعيته (٦) ، ومطاردة الدولة للمتكلمين بعد محنة « خلق القرآن » ، وثورة الحنابلة على المعتزلة والمتكلمين ، وانتصار المتوكل لاهل السنة ، وعدائه للمتكلمين والمعتزلة (٧) ، لان ثمة من يقول انه كان معتزليا (٨) وانه كان ثنويا (٩) . وقد ادرجه ابن النديم في قائمة رؤساء المتكلمين الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الزندقة (١٠) . غير أن مدحه الرسول الاكرم ونظمه نسبه في القصيدة التي نحققها قد يبدد نسبة هذه التهم اليه ، ويلقي ضوءا على تشيعه .

— ٢ —

كان الناشىء — امثال كثيرين من القدماء — متعدد الجوانب العلمية والادبية ، وصاحب « عدة تصانيف جميلة (١١) » . يذكر القفطي ، وكأنه يرد على المرزباني ومن يشاطره رأيه السالف ،

---

(٤) في البداية والنهاية ١١ : ١٠١ : والفروضيين (بالفاء)

(٥) تاريخ بغداد ١٠ : ٩٢ . ولم أجد عنه شيئا في كتابي المرزباني : « الموشح » و « معجم الشعراء »

(٦) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ٤٩٣

(٧) زغلول سلام : أبو العباس الناشيء الاكبر وكتابه في الشعر ، مجلة كلية الاداب — جامعة الرياض ، المجلد الخامس ، ص ١٧٦

(٨) الفهرست ٢١٧ ، ومقالات الاسلاميين في مواطن عدة

(٩) الفهرست ٢١٧

(١٠) الفهرست ٤٠١

(١١) وفيات الاعيان ٣ : ٩١

وينفي تهمه ، ان ابـــا العباس « كان يعلّم العلوم ويتبحر فيها : علّـم النحو واحكمه ونظر في علله . وهو متكلم ، تبين لـــه بقوة الكلام نقض اصوله فنقضها وصنف فيها ، وكذلك العروض ادخل على قواعده شُبَهًا ناقضـــة لهـــا ، ومثّله بامثلة غير امثلة الخليل ، واحسن واللـــه في كل ذلك واظهر قـــوة ، وكذلك عمل بالكتب المنطقية . واذا وقـــف الواقف على تصانيفه وانصف ظهر لـــه الاجتهاد والامتاع ، حتى ان الغير (كذا) منصف ينسبه الى التهوس . وليس الامـــر كذلك ، وانما هي قـــوة وفطنة » (١٢) .

يُستَشـــفّ من هذا النص ونص المرزباني السابـــق ، على تفاوتهما في الحكم والتقويم ، ان كانت للناشىء جهود وآثار في النحـــو والعروض ، والكلام والمنطق . لكـــن ، مما يؤسف لـــه ، أن ما وصل الينا منها لا يكـــاد يذكـــر .

وُوُصِـــف في النحو والعروض « بالنحوي العروضي » ، وقيل انـــه اخـــذ عن سيبويه والاخفش ، ثم وضع في النحو « كتبـــا » ، لكنه مات قبل أن يتمها وتؤخذ عنـــه ، حتى قال المبـــرد « لو خرج علم الناشىء الى الناس لمـــا تقدمه احد » (١٣) . بيد انه لم يصل الينا شيء من نحـــوه او عروضه . امـــا في الكلام والمنطق ، فلـــه نقول مبعثرة في « مقالات الاسلاميين » ، وقطعتان (١٤) نشرهما الدكتور جوزيف . فان . اس . من جامعة توبنجن، بالمانيـــا الغربية، عـــام ١٩٧١ ضمن منشورات المعهـــد الالماني للدراسات الشرقية ببـــيروت .

— ٣ —

وكـــان الناشىء ناقدا ايضا ، وقد خلف في دنيا النقـــد كتابـــا وقصيدتين من « النظـــم التعليمي » .

---

(١٢) انباه الرواة ٢ : ١٢٨ ووفيـــات الاعيان ٣ : ٩١

(١٣) مراتب النحويين ٨٥ ، والمزهر ٢ : ٤٠٩

(١٤) انظر : احسان عباس ، تاريخ النقد الادبي عند العرب ، ص ٦٣ .

أما الكتاب ، فَذُكِر بأسماء مختلفة ، اذ ذكره التوحيدي باسم « نقد الشعر » واحتفظ منه بمادة طيبة في « بصائره وذخائره » ، وهي التي اعتمدها الدكتور احسان عباس فيما كتبه عن الناشىء في « تاريخ النقد الادبي عند العرب (ص ٦٣ — ٦٦) ؛ وذكره ابن رشيق القيرواني باسم « تفضيل الشعر » وقال انه ذكر فيه اشياء من شعره ، فشكرها ونوَّه بها ونبّه عليها ، وفضّلها على اشعار الفحول من مثل جرير ، وهو ما عدّه عيباً عليه (١٦) . أما ابو اسحق الحصري القيرواني فكان يكتفي في نقله عن الكتاب بقوله « وقال الناشىء في فصل من كتابه في الشعر » و « قال في هذا الكتاب » (١٧) . وقد اعتمد الدكتور محمد زغلول سلام التسمية الاخيرة في مقاله « ابو العباس الناشىء الاكبر وكتابه في الشعر » وافاد في كلامه على القسم النقدي منه مما بقيت من نصوصه في « البصائر والذخائر » و « زهر الآداب » . وأما القصيدتان النقديتان ، اللتان تذكّران بقصيدة « فن الشعر » لهوراس ، فهما تتميم لمحاولات الناشىء وآرائه النقدية في كتابه ، الاولى في اثنين وعشرين بيتا مطلعها (١٨) :

لعن الله « صنعة الشعر » ، ماذا من صنوف الجُهّال فيها لقينا ؟

والاخرى في ثمانية عشر بيتا ، أولها (١٩) :

الشعر ما قوَّمتَ زَيْغَ صدوره وشددت بالتهذيب أَسْرَ متونه

في القصيدتين مسائل نقدية ، يعضد بعضها ما اثر عنه في كتابه المذكور ، ويلقي بعضها الآخر الضوء على لفتات وأمور جديدة . وقد كانتا معتمدي في الكشف عن جهود نقدية جديدة للناشىء في

---

(١٦) العمدة ١ : ٢٠١

(١٧) زهر الاداب ٣ : ٦٨٥

(١٨) العمدة ٢ : ١١٣ — ١١٤

(١٩) وردت كاملة في : زهر الاداب ٣ : ٦٨٦ — ٦٨٧ ، وذكر ابن رشيق منها اربعة عشر بيتا فقط في العمدة ٢ : ١١٥ — ١١٦ .

مقالي « الناشيء الاكبر ناقدا (٢٠) » الذي يعد تتمة لما بداه الدكتور احسان عباس، الذي كان أول من تحدث عن الناشيء ناقدا من المعاصرين .

— ٤ —

وأما الناشيء الشاعر ، فكان ، فيما يدلنا مؤرخو الادب وما تبقّى من شعره ، ناظما وشاعرا ؛ ومن المؤسف انه لا توجد — الى الآن — اية اشارة الى ديوان له . ففي النظم ، هناك قصيدتاه النقيديتان اللتان مرّ ذكرهما ، وقصيدة قيل انه نظمها في الكلام او في « فنون العلم » في اربعة آلاف بيت على رويّ واحد (٢١) . ويجوز أن تسلك قصيدته التي نحن في صددها في نظمه التعليمي أيضا .

أما في الشعر ، فله قصائد ومقطوعات في أكثر فنونه وموضوعاته من مثل : الغزل ومجالس الانس ، والمديح والافتخار ، والهجاء ، وعلم الكلام والافتخار بالمتكلمين ، ووصف الطرد والصيد ، ونبه ابن خلكان الى ان للشاعر في الموضوع الاخير أشعارا كثيرة تَرَسَّم فيها خطى أبي نواس في طردياته ، وهي تؤلف قدرا كبيرا مما جمعه كشاجم الرملي في « المصايد والمطارد » . وأما أشعاره في الموضوعات الاخرى فمبثوثة في مصادر الادب المختلفة ، وقد عُنيتُ — وما زلت — بجمعها جميعا ، وانني لاتطلع الى ان أوفق الى الانتهاء منها ونشرها في المستقبل القريب ان شاء الله . ولهذا ، أمسك الآن عن الكلام على شعره والتعرض لما للقدامى والمعاصرين فيه من أحكام وآراء .

---

(٢٠) مجلة الاديب « البيروتية » حزيران ١٩٧٤ ، ص ٢٢ — ٢٦

(٢١) وفيات الاعيان ٣ : ٩١ . ويقول الدكتور شوقي ضيف « وربما كانت منها الابيات التي أنشدها الحصري له في موضوعات الشعر وصفاته اللفظية والمعنوية (العصر العباسي الثاني ، ص ٤٩٣) . وهو يقصد قصيدته « النونية » :

الشعر ما قومت زيغ صدوره وشددت بالتهذيب اسر متونه

٢ ــ القصيـدة وموضوعهـا

ــ ١ ــ

اهتديـت الى مخطوط هذه القصيدة صدفـة ؛ ففي حين كنت انظر في عـدد من المخطوطات في مكتبة المتحـف البريطاني بلندن عـام ١٩٧٤ ، وقعت عيناي عليها في آخـر مجموعة « المثل السائر والحماسة » الخطّيّة (Add,9614,Item III) ، فطلبت تصويرهـا ، لانني عرفت من خلال صحبتـي للناشىء ، وانـا اكتب عنه مقالـي « الناشىء الاكبر ناقـدا »، أن لـه قصيدة في مدح الرسـول (ص) ونسبـه الشريـف .

وعـدت الى الشاعر من جديد ، ورحت انقصى اخباره ثانيـة ؛ لعلي اظفر بجديد عنـه وعن قصيدته ، فوجدت ان بروكلمان اشار الـى وجـود القصيدة في مكتبة المتحف البريطاني وغيره ، وإن ذكـر سهوا او خطأ انها « ميميـة (٢٢) » . وخطر ببالي تـوا كتاب « المدائح النبويـة في الادب العربي » للمرحوم الدكتور زكي مبارك ، فهرعت اليه علّني اجدها هناك ، غير انني لـم اقع فيه على أيـة اشارة عنها او عن صاحبهـا ، ولا تثريب ، فربما كـان الناشىء غير معروف عند زكي مبارك آنذاك ، فانسحب عليه قولـه « ولم نرد الاستقصاء ، وانما اكتفينـا بالكلام عن آثار الشعراء الفحـول (٢٣) » .

ثـم قصدتُ كتب التاريخ والسيرة خاصة ، فوجدت ان حافـظ المغرب أبـا عمر يوسف بن عبد البر القرطبي « ت ٤٦٣هـ » اول مـن

---

(٢٢) تاريخ الادب العربي ٢ : ٢٣٤ (الترجمة العربية) .

(٢٣) المدائح النبوية في الادب العربي ، ص ١٥ ــ ١٦

اشار اليها واثبتها في كتابه « الانباه على قبائل الرواة » (ص ٥٠ ــ ٥٥) ، ثم تلاه الامام أبو الفداء اسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ) فنقلها عنه (٢٤) وادرجها في كتابيه : « البداية والنهاية في التاريخ » (الجزء الثاني ، ص ١٩٥ ــ ١٩٨) و « السيرة النبوية » (الجزء الاول ، ص ٧٧ ــ ٨١) . ولما قابلت بين القصيدة مخطوطة وبينها مطبوعة في المصادر الثلاثة ، بانت لي اختلافات وتصحيفات كثيرة ، واحسست بحاجتها الى بعض الشروح والتوضيحات . وقد قوّت هذه العوامل جميعا عزمي على تحقيق القصيدة ونشرها بالشكل الذي هي عليه الآن .

ــ ٢ ــ

يمكن ، بسهولة ، تصنيف القصيدة في قسمين رئيسين :

الاول (١ ــ ٢٨) في مدح الرسول الاكرم وتعداد مناقبه ، والاشارة الى اخبار نبوّته والتبشير بها قبل حدوثها ، وسرد امارات النبوة وآياتها المختلفة ، والاشادة بما احدثته من دوي في المشارق والمغارب .

والآخر (٢٩ ــ ٧٧) ، في نسب الرسول ــ عليه السلام ــ ، وقد بداه بوالده عبد الله ، وختمه بآدم ابي البشر جميعا ، متخطيا بعض الاسماء من سياقه النسب من ولد اسماعيل عليه السلام (٢٥) . وقد ذكر لكل واحد منهم ما امتاز به من صفات ، وتفرّد به من شمائل ، وعُرف عنه من اعمال هامة ، حتى وصف صنيعه في القصيدة بانه

---

(٢٤) يقول « هكذا أورد القصيدة الشيخ أبو عمر بن عبد البر وشيخنا أبو الحجاج المزي في تهذيبه من شعر الاستاذ ابي العباس عبدالله بن محمد الناشيء (السيرة النبوية ١ : ٨١) . لكنني لم أوفق في الاهتداء الى تهذيب الشيخ المزي

(٢٥) راجع ، على سبيل المثال ، ما يلي ، ووازن سلسلة النسب فيها بما جاء في القصيدة :
١ ــ ابن هشام : سيرة النبي ١ : ١ ــ ٩
٢ ــ ابن عبد البر : الانباه على قبائل الرواة ٤٩ ــ ٥٠
٣ ــ ابن كثير : السيرة النبوية ١ : ٧٦ ، والبداية والنهاية ٢ : ١٩٥
٤ ــ ابن حزم : جمهرة الانساب ٧ ــ ١٣

احسن نظـم للنسب النبوي (٢٦) . هذا القسم ، على ما فيـه من نعوت وشمائل ، أدخل في بـاب « النظم التعليمي » من الاول وان كانـا لا يخلوان معا من ومضات الشاعرية ولمعانهـا . وما احسن ما قوّم بـه ابن كثير القصيدة وصاحبها بكلماته الموجزة : « وهـذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وعلمـه وفهمه وحفظه ، وحسن لفظـه واطلاعه واقتداره على نظـم النسب الشريف في سلك شعره ، وغوصه على هذه المعاني التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحـره (٢٧) » .

ثانيـا : النـص

الحمـد للـه ، قال في سمط الله ، قال في سبل الهدى والرشاد ، قال ابو عمـر * : وقد اعتنى الناس بنظم نسب سيدنا رسول اللـه ، صلى اللـه عليه وسلم ، واحسن ما جـاء في ذلك ما نظمه أبـو العباس عبد الله بن محمد الناشي (بالنون والشين المعجمة ، على وزن الماشي) ، وهو أبـو العباس عبد الله بن محمد الناشي الانباري المعروف بابـن شرشير الشاعر ** . كـان من الشعراء المجيدين ، وهو في طبقة ابـن الرومي أبي الحسن علي بن العباس الشاعر المشهور المتوفى سنة ٢٨٣ ، والبحتري أبـي عبادة الوليد بن عبيد الشاعر المشهور المتوفـى ٢٨٤ ، وهو الناشىء الاكبر ، ونصه (من الطويـل) :

---

(٢٦) ابن كثير : السيرة النبوية ١ : ٧٧ ، والبداية والنهاية ٢ : ١٩٥

(٢٧) ابن كثير : السيرة النبوية ١ : ٨١ ، والبداية والنهاية ٢ : ١٩٨

(*) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبـد البر النمري القرطبـي المالكي ، من اكابـر حفّاظ الحديـث ، وحافظ المغرب المعروف . ولد بقرطبـة ، ثم فارقها وجال في غربي الاندلس مدة ، ثم تحـول الى شرقيهـا وسكن بعض مدنـه . له عدة مؤلفـات ، منها — وهي مطبوعة : الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، وبهجة المجالس وأنس المجالس ، والقصد والأمم في التعريف باصول أنساب العرب والعجم ، والانباه على قبائل الرواة (وهذان الكتابان مطبوعان في مجلد واحد) .
توفي عام ٤٦٣ هـ بمدينة شاطبة عن خمس وتسعين سنة
راجع ترجمته في : مقدمة ناشر القصد والامم ، والاستيعاب ٤ : ١٩٧٢ (للمحقق علي محمـد البجاوي)

(**) في الاصل : شرشر ، خلافا لما في المصادر .

١ ــ مدحتُ رسولُ اللــه ابغي بمدحــه
وُفــورَ حظوظي من كريــم المواهــبِ

٢ ــ مدحت امــرءا فاق المديح ، موحّدًا
بأوصافــه مــن مُبعِــدٍ ومقــــاربِ

٣ ــ نبــيٌّ تَسامَى في المشارق نــوره
فلاحــت هواديه لأهــــل المغــــاربِ

٤ ــ انتنــا بــه الانباءُ قبــل مجيئــه
وشاعت بــه الاخبار في كل جانــبِ

٥ ــ واصبحت الكُهّــان تهتــف باسمه
ويُنْفَى بــه رَجــم الظنون الكــواذبِ

٦ ــ وأُنطِقَت الاصنامُ نطقــا تبــرات
الى اللــه فيه من مقال الاكــاذبِ

٧ ــ وقالت لاهل الكفر قولا مبيَّنــًا :
اتاكــم رسول من لــؤيّ بــن غالــبِ

٨ ــ ورامَ استراقُ السمع جــنٌّ فزُيِّلَت
مقاعِدَهــم منها رجــومُ الكواكــبِ

٩ ــ هدانا الى ما لم نكن نهتدي لــه
، لطول العمى ، من واضحات المذاهبِ

١٠ ــ وجــاء بآيات تُبَــيِّنُ انهــــا
دلائــل جبّــار ، مثيبٍ معاقِــــبِ

---

(١) في الانباه : المآوب ، وفي السيرة : المآرب
(٢) في الا نباه : فات . وفي الانباه والسيرة : عن مبعد
(٣) في الانباه والسيرة : نبيا . والرفع والنصب جائزان نحويا
(٥) في الانباه والسيرة : وتنفي به رجم
(٧) في الانباه والسيرة : اتاكم نبي

١١ ــ فمنها انشقاق البدر حينَ تعمَّمت
شُعوب الضيا منه رؤوسَ الاخاشبِ

١٢ ــ ومنها نُبوعُ الماء بين بُنانه
وقد عُدِمَ الوُرّاد قرب المشاربِ

١٣ ــ فروَّى به جمًّا غفيرا وانهلت
باعناقه طوعا اكُفُّ المذانبِ

١٤ ــ وبئرٌ طَفَت بالماء من مسّ سَهْمه
ومِنْ قَبلُ لم تَسمح بمُذْقَة شاربِ

١٥ ــ وضرْعٌ مُراهُ فاستدرّ ، ولم تكن
به دَرَّةٌ تصغي الى كفّ حالبِ

١٦ ــ ونطق فصيح من ذراع مبينة
لكيد عدوٍّ للعداوة ناصبِ

١٧ ــ وإخبارُه بالامر من قبل كونه
وعند مباديه بما في العواقبِ

١٨ ــ ومن تكلم الآيات وحيٌ أتى به
قريبُ المآتي ، مستجمّ العجائبِ

---

(١١) الارض الخشباء : الارض الشديدة اليابسة التي لا تمسك الماء

(١٣) في الانباه والسيرة : وأسهلت
الجم الغفير : الجماعة الكثيرة من الناس . والمذانب : جمع مذنب ، وهو مسيل الماء من الارض

(١٤) المذقة : الطائفة من اللبن الممزوج بالماء . وأبو مذقة : الذئب

(١٥) مرى الناقة : مسح ضرعها بيده لتدر

(١٧) في الانباه والسيرة : وعند بواديه

١٩ ــ تقاصرت الافكار عنه ، فلم تُطِـع
سواه ، ولـم تخطر على قلب خاطـبِ

٢٠ ــ حوى كلَّ علم ، واحتوى كلّ حكمة
وفاق مُـرام المستمر المـــــوارب

٢١ ــ أتانا بـــه ، لا عن رويّة مرتـــيء
ولا صُحْفٍ مُسْتَمْلٍ ، ولا وصفِ كاتـبِ

٢٢ ــ يواتيـــه طورا في اجابـــة سائـــل
وافتـــاء مُستَفْتٍ ، ووعـــظِ مخاطـــبِ

٢٣ ــ واتيانِ برهـــانٍ ، وفرضِ شرائـــع
ونصِّ احاديـــثٍ ، ونَصْب مـــــــآربِ

٢٤ ــ وتصريفِ امثال ، وتثبيت حجـــة
وتعريف ذي جحـــد ، وتوقيف كـــاذبِ

٢٥ ــ وفي مجمع النادى ، وفي حومة الوغى
وعنـــد حديث المعضـــلات الغرايـــبِ

٢٦ ــ فياتي على مـــا شئت من طُرقاته
كريـــمَ المعاني مستلـــذَّ الضرايـــبِ

٢٧ ــ يُصَدِّق منه البعض بعضا كأنمـــا
يلاحـــظ معناه بعـــين المراقـــبِ

---

(١٩) في الانباه والسيرة :
تقاصرت الافكار عنـــه ، فلم يُطِـع بليغـــا ، ولم يخطر على قلب خاطب

(٢٠) وارب : خاتل ، خادع

(٢٣) في الانباه والسيرة : وقص احاديث

(٢٥) في الانباه والسيرة : وعند حدوث

(٢٦) في الانباه والسيرة : قويم المعاني مستدر الضرائب

٢٨ ــ وعجزُ الورى عن ان يجيئوا بمثل ما
وصفنـــاه معلوم بطـــول التجـــاربِ

٢٩ ــ تأبَّـى بعبد اللـــه اكرمِ والـــد
نبلّـج منـــه عن كريم المناســـبِ

٣٠ ــ وشيبةَ ذي الحمد الذي فخرت بـــه
قريش على اهل العلا والمناصـــبِ

٣١ ــ ومـــن كان يُسْتَسْقى الغمامُ بوجهه
ويُصْدَرُ عن آرائـــه في النواصـــبِ

٣٢ ــ وهاشـــمٍ الباني مُشيـــدَ افتخـــاره
بِغَـــرّ المساعي ، وابتذال المواهـــبِ

٣٣ ــ وعبد مناف ، وهو عُلِّم قومه أنّـــ
بســـاط الاماني واحتكـــام الرغايـــبِ

٣٤ ــ وإنّ قُصَيًّا من كرامِ غراســـه
لفـــي مَنْهَلٍ لم يَدنُ من كـــفّ قاضـــبِ

٣٥ ــ بـــه جمع اللـــه القبائل بعدمـــا
تَقَسَّمـــها بَـــتّ الاكـــف السوالـــبِ

٣٦ ــ وحلّ كِلابٌ من ذرى المجـــد معقلا
تقاصَرَ عنـــه كـــل دان وعـــازبِ

---

(٣٠) شيبة : هو عبد المطلب ولد هاشم بن عبد مناف

(٣١) في الانباه والسيرة : في النوائب

(٣٢) في الانباه والسيرة : وامتنان المواهب

(٣٣) في الانباه والسيرة : اشتطاط الاماني

(٣٤) في الانباه والسيرة : من كريم . القاضب : الفارس

(٣٥) في الانباه والسيرة : نهب الاكف

(٣٦) في الانباه والسيرة : دان وغائب

٣٧ ــ ومُرَّة لم يَحْلُل مريرةَ عزمه
سفاه سفيه او محوبة حايبِ

٣٨ ــ وكعبٌ علا عن طالب المجد كعبُه
فنال بأعلى السعي اعلى المراتبِ

٣٩ ــ والوى لؤي بالمُداةِ فطُوِّعَت
له هِمَمُ الشُمّ الأنوفِ الاغالبِ

٤٠ ــ وفي غالبٍ بأس اتى الناس دونهم
يدافع عنهم كلَّ قرن مغالبِ

٤١ ــ وكانت لِفِهْرٍ في قريش خُطابةٌ
يعوذ بها عند افتخار المخاطبِ

٤٢ ــ وما زال منهم مالكٌ خيرُ مالكٍ
واكرمُ مصحوب ، وانجدُ صاحبِ

٤٣ ــ وللنَضْر طُوَّلٌ يَقْصُر الطَرْفُ دونَه
يجيب الى ضوء النجوم الثواقبِ

٤٤ ــ لعمري لقد ابدى كنانة قبله
محاسن تأبى أن تطوع لغالبِ

٤٥ ــ ومن قبلِه ابقى خُزَيمة حمدَه
تليدَ تراث عن طريف الاقاربِ

---

(٣٧) في الاصل : تحلل (بالتاء) . والحائب : الآثم

(٣٨) في الانباه والسيرة : بادنى السعي

(٤٠) في الانباه والسيرة : بأس ابي البأس دونهم ، وهو تحريف

(٤١) في الانباه والسيرة : عند اشتجار
يعوذ : يلجأ ، يعتصم

(٤٢) في الانباه والسيرة : واكرم صاحب

(٤٣) في الانباه والسيرة : * بحيث التقى ضوء النجوم الثواقب *
والطول (بسكون الواو) : الفضل والقدرة والسعة والعلو

(٤٥) في الانباه والسيرة : حميد الاقارب

٤٦ ــ ومُدرِكةٌ لم يُدرِك الناسُ مِثلَه
أعفَّ وأغنى عن دنيّ المكاسبِ

٤٧ ــ وإلياس كان اليأس منه مقارِنًا
لاعدائه قبل اعتداد الكتائبِ

٤٨ ــ وفي مُضرٍ يُستَجمَع الفخرُ كلُّه
اذا اعترفت يوما زحوفُ المناقبِ

٤٩ ــ وحلَّ نِزارٌ من رياسة أهلِه
محلاً تَسامَى عن عيون الرواقبِ

٥٠ ــ وكان مَعَدٌّ عُدَّةً لِوَليِّه
اذا خاف من كيد العدو المحاربِ

٥١ ــ وما زال عدنانٌ اذا عُدَّ فضلُه
تَوَحَّدَ فيه عن قريب وصاحبِ

٥٢ ــ وادٍّ تأدّى الفضلُ فيه لغايةٍ
وإرثٍ حواه عن قروم أشاهبِ

٥٣ ــ وفي أُدَدٍ حُكْمٌ تَزَيَّن في حِجًا
اذا الحكم ازهاه فُطوَرُ الحواجبِ

٥٤ ــ وما زال يستعلي هُمَيْسَعُ بالعُلا
ويتبع آمالُ البعيد المراغبِ

---

(٤٦) في الانباه والسيرة : اعفّ واعلى

(٤٨) في الانباه والسيرة : * اذا اعتزكت يوما زحوف المقانب *
اعترف : صبر . المقانب : جمع مقناب ، الطائفة من الخيل ما بين الثلاثين الى الاربعين

(٥١) في الانباه والسيرة : عن قرين (بالنون) . وتوحد : انفرد

(٥٢) في الانباه والسيرة : أشايب

(٥٣) في الانباه والسيرة : تزين بالحجا ، وقطوب الحواجب

٥٥ ــ ونَبْتٌ بَنَتْه دوحةُ العز ، وابتنى
معاقلَه من مُشْمَخِرّ الاهاضبِ

٥٦ ــ وحِيزَت لِقَيدارٍ سماحةُ حاتمٍ
وحكمةُ لقمان ، وهمةُ حاجبِ

٥٧ ــ همُ نسلُ اسماعيلَ صادقِ وَعدِه
فما بعده في الفخر مسعى لذاهبِ

٥٨ ــ وكان خليلُ اللهِ اكرمَ من عَنت
له الارض ، من ماشٍ عليها وراكبِ

٥٩ ــ وتارحُ ما زالت له اريحيةٌ
تُبَيِّنُ منه عن حميد الضرائبِ

٦٠ ــ وناحورُ بَحرٌ ، والعِدا خَضَعَت له
بأشياء لمّا يُحْصِها عَدُّ حاسبِ

٦١ ــ وساروعُ في الهيجاء ضيغمُ غابةٍ
يَقِدُّ الكِلى بالمرهفات القواضبِ

٦٢ ــ وأرغو قناةٌ في الحروب محكَّمٌ
ضنينٌ على نفس المُشِحّ المُغالبِ

---

(٥٥) في الانباه والسيرة : في مشمخرّ . ومشمخرّ : مرتفع

(٥٦) في الانباه والسيرة : لقيذار (بالدال المعجمة)

(٥٨) عنت : خضعت وذلت

(٥٩) تارح : والد ابراهيم الخليل ، ويقال هو آزر بن ناحور

(٦٠) في الانباه والسيرة :

وناحور نحّار العدى ، حُفِظت له ماثر لما يحصها عد حاسب

(٦١) في الانباه والسيرة : واشرع . . . . يقد الطُّلا (بالطاء) . والطلى : الاعناق او اصولها . وقيل : ساروع (بالغين المعجمة) ، وهو شاروغ بن ارغو

(٦٢) في الانباه والسيرة : وارغو ناب . وقناة في الاصل : قنات (بالتاء المفتوحة)

٦٣ ــ ومــا نالغٌ في فضله بِلَــو قومــه
ولا عابِــرٌ من دونهم في المراتــــبِ

٦٤ ــ وشالِخُ وارْفَخْشَدْ وسامٍ سَمَت بهم
سجايا حَمَتْهُم كلَّ زارٍ وعايــــبِ

٦٥ ــ وما زال نُوْحٌ عند ذي العرش فاضلا
يُعَــدِّدُه في المصطفين الاطايــــبِ

٦٦ ــ ولَمْــكٌ ابوه كان في الروع رائضًا
جريئا علــى نفس الكميّ المُضــاربِ

٦٧ ــ ومن قبل لَمْــكٍ لم يزل مُتوشِّحٌ
يــذود العــدا بالذائدات الشــواذبِ

٦٨ ــ وكانــت لادريس النبــيّ منــازل
من اللــه ، لم يُعْزَز بهمة راغــــبِ

٦٩ ــ ويادَرُ بَحــرٌ عند اهــل سماتــه
ابــيُّ الخزايا ، مستدقُّ المذاهــــبِ

---

(٦٣) نالغ : هو نالغ بن عابر ، وعابز : هو عابر بن شالخ

(٦٤) في الاصل : ونالخ . والتصحيح من الانباه والسيرة ، وهو مطابق لما في كتب الانساب

(٦٥) في الاصل : تعــــدده

(٦٦) في الانباه والسيرة : رائعا ، وهو تحريف . ورجل رائض : صلب مسن

(٦٧) في الانباه : الشوارب (بالراء) ، وفي السيرة : الشوازب (بالزاي) الشوذب : الطويل النجيب من كل شيء ، والشوازب (بالزاي) : المضمرات

(٦٨) في الانباه والسيرة : لم تقرن

(٦٩) في الانباه والسيرة :

ويــارد بحــــر . . . . . آل سراتــه . . . . . المــآرب

وفي كتب السيرة : يرد ، وهو ابن اخلوخ

٧٠ ــ وكانت لهلاييلَ فيهم فضايلٌ
مهذَّبة من فاحشات المثالبِ

٧١ ــ وقَينانُ من قبلُ اقتنى مجدَ قومه
وفات بشأوِ الفضل جدَّ الركايبِ

٧٢ ــ وكان انوش ناشئٌ للمجد نفسه
ونزّهها عن مُرديات المطالبِ

٧٣ ــ وما زال شيثٌ بالفضائل فاضلا
سريًّا بريًّا من ذميم المعايبِ

٧٤ ــ وكلُّهمُ من نور آدم اقتبسوا
وعن عوده اجنوا ثمار المناقبِ

٧٥ ــ وكان رسول الله اكرمَ مُنْخَبٍ
جرى في ظهور الطيبين المناخبِ

٧٦ ــ عقايلُه ، آباؤه ، امّهاته
مبراةٌ من فاضحات المثالبِ

٧٧ ــ عليه سلام الله في كل شارق
الاحَ لنا ضوءا ، وفي كل غاربِ

ــ انتهى ــ

---

(٧) في الانباه والسيرة : و * وكانت لهلابيل فهم فضائل *

(٧١) في الانباه والسيرة : * وفاد بشأو الفضل وخد الركائب *
وفي كتب السيرة : قاين ، وهو أبو مهلابيل

(٧٣) في الانباه والسيرة : شريفا بريئا

(٧٥) في الانباه والسيرة : منجب . . . والمناجب (بالجيم)

(٧٦) في السيرة : * مقابلة آباؤه أمهاته * ، وفي الانباه : * . . . وأمهاته * باضافة (واو) يختل بها الوزن .

اهـم المصـادر والمراجـع

١ ـ المصـــادر

ـ التوحيدي ، ابـو حيـان :
البصائر والذخائر (الجزء الثاني) . تحقيق الدكتور ابرهيـم الكيلاني ، دمشق . دون تاريـخ .

ـ الحصري القيرواني ، ابرهيم بـن علـي :
زهـر الآداب (الجزء الثالث) . تحقيق الدكتور زكي مبارك ، دار الجيل ، بيروت . الطبعة الرابعـة ١٩٧٢ .

ـ الخطيـب البغدادي :
تاريخ بغداد (الجزء العاشر) . مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الاولى ١٩٣١ .

ـ ابـن خلكان ، شمس الدين :
وفيات الاعيان (الجزء الثالث) . تحقيق الدكتور احسـان عباس . دار صادر ، بيروت ، دون تاريـخ .

ـ ابـن رشيق القيرواني :
العمدة ، تحقيق محمـد محيي الدين عبد الحميـد . دار الجيل ـ بيروت ، الطبعة الرابعـة ١٩٧٢ .

ـ السيوطي ، جلال الديـن :
المزهـر . تحقيق احمـد جاد المولى وزملائه . القاهرة ، دون تاريـخ .

ـ ابـو الطيب اللغوي :
مراتب النحويين . تحقيق ابو الفضل ابرهيم ، القاهرة ١٩٥٥ .

— ابـــن عبد البر القرطبي :
الانباه على قبائل الرواة . مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٥٠هـ.

— القفطي ، ابـــو الحسن علي بن يوسف :
انبـــاه الرواة على انباه النحاة (الجزء الثاني) . تحقيـــق محمد ابو الفضل ابرهيم ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٥٠.

— ابـــن كثير ، اسماعيل :
١ — السيرة النبوية (الجزء الاول) ، تحقيق مصطفى عبـــد الواحد . البابي الحلبي ، القاهـــرة ١٩٦٤ .
٢ — البداية والنهاية في التاريخ (الجزء الثاني) . مطبعة السعادة. الطبعة الاولـــى ١٩٣٢ .

— ابـــن النديـــم :
الفهرست . تحقيق محمد رضا تجدد . طهران ١٩٧١ .

٢ — المراجـــــع

— احسان عباس (الدكتور) :
تاريخ النقد الادبي عند العرب . الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧١

— بروكلمـــان ، كـــارل :
تاريخ الادب العربي (الجزء الثاني) . ترجمة الدكتور عبـــد الحليم النجار . دار المعارف بمصر ، الطبعةِ الرابعة ١٩٧٧ .

— بكـــار ، يوسف (الدكتور) :
الناشىء الاكبر ناقدا . مجلة الاديب ، بيروت ، حزيران ١٩٧٤.

— زغلول سلام ، محمـــد (الدكتور) :
ابـــو العباس الناشىء الاكبر وكتابه في الشعر . مجلة كلية الآداب — جامعة الرياض . المجلد الخامس(١٩٧٧ — ١٩٧٨).

— زكـــي مبارك (الدكتور) :
المدائـــح النبويةِ في الادب العربي ، البابي الحلبـــــي ، القاهـــــرة ١٩٣٥ .

— شوقـــي ضيف (الدكتور) :
العصر العباسي الثاني . دار المعارف بمصر ، الطبعـــة الثانيـــة ١٩٧٥ .

تحقيق نسبة كتاب
درة التنزيل وغرة التأويل

للدكتور عمر العاريسي

تنسب بعض المصادر هذا الكتاب لابي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الاسكافي المتوفى ٤٢٠هـ ، كما نرى في معجم الادباء (١) ، لياقوت ، وفي الاتقان في علوم القرآن « للسيوطي » ؛ بل ان هذا الكتاب قد طبع مرتين (٢) ، فيما اعلم ، منسوبا اليه ايضا .

« ونسبة هذا الكتاب الى هذا المصنف بحاجة الى اعادة نظر ؛ ذلك انني وجدته ، وانا انقب في بحثي هذا ، منسوبا لمصنف آخر ، هو الراغب الاصفهاني ، الحسين بن مفضل بن محمد ، الذي عاش الى أوائل المئة الخامسة ، وذلك بتعديل طفيف اجري على العنوان ليصبح « درة التاويل في متشابه التنزيل » (٣) .

وقد رأيت نسبة هذا الكتاب للراغب نسبة صريحة على أغلفة النسخ التالية للمخطوطة وعلى صفحاتها الاولى : —

١ — رقم ١٧٦ في مكتبة اسعد افندي في جامع السليمانية في استانبول .

٢ — رقم ٢٥ في مكتبة خسرو باشا في جامع السليمانية في استانبول .

٣ — رقم ١٨٠ في مكتبة راغب باشا في استانبول .

---

(١) مطبعة المأمون ١٨ / ٢١٤ ، ٢١٥

(٢) طبع لاول مرة بمطبعة الخانجي بمصر ١٩٠٨ ، والثانية صدرت عن دار الآفاق الحديثة في بيروت عام ١٩٧٣

(٣) من كلمة نشرت لمدّ هذا البحث في فصلة من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج ١ م ٥١ عام ١٩٧٦

٤ — رقم ١٧٤٨/أ/٨٥٠ في مكتبة جامع السلطان احمد الثالث / طوب قبوسراي ، باستنبول .

٥ — رقم ١٧٤٩/أ/١٨٣٠ في مكتبة جامع السلطان احمد الثالث / طوب قبوسراي باستنبول .

٦ — رقم ٧ تفسير . في مكتبة معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة ، والصورة على (الميكروفيلم) عن مخطوط وجد بالمتحف البريطاني برقم ٥٧٨٤ ورقم ٢٣٤ .

وقد يجري بين هذه النسخ المخطوطة ما يجري بين نسخ المخطوط الواحد المتعددة ؛ من اختلاف يسير قد يكون في عنوان او في بعض التراكيب. من ذلك ، ما نجده هنا ، ان نسخة مكتبة راغب باشا (رقم ١٨٠) وُسِمت باسم « حل متشابهات القرآن »(٤) ونسخة مكتبة خسرو باشا (رقم ٢٥) باسم « تفسير المتشابهات » (٤) ونسخة اخرى باسم « تفسير القرآن العظيم » (٥) ورابعة باسم « اسرار التأويل وغرة التنزيل » (٦) ، ولكنها تلتقي في أمرين هامين ، هما النسبة الصريحة للراغب الاصفهاني (٧) والمادة الاساسية التي يقوم عليها الكتاب من ادارة الفروق الدقيقة بين الآيات القرآنية المتشابهة الصيغ والتراكيب .

---

(٤) مخطوط رقم (٢٥) مكتبة خسرو باشا بالسليمانية .

(٥) كما هو مثبت على غلاف مخطوط « الذريعة الى اخلاق (كذا) الشريعة » المنسوبة للراغب برقم (٧٦٨) بمكتبة ابرهيم باشا بالسليمانية .

(٦) هي النسخة التي تتخذ رقم « ٧ تفسير » في مكتبة معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية

(٧) وينسبه للراغب ، أيضا ، بروكلمان (٢ / ٥٠٥ — ٥٠٦ المبسط) ، والأعلام ٢ / ٢٧٩ ويسميه حل متشابهات القرآن ، ودائرة المعارف الاسلامية المجلد ٩ (١ / ٤٧٣) . ومن الغريب أنه معدود من مصنفات الفخر الرازي في كتابه « النفس والروح وشرح قواهما » المطبوع في الهند ١٩٦٨ .

ويدعم القول بصحة هذه النسبة للراغب ، الى جانب هذه الاشارات ، اشارة الراغب نفسه في بعض مصنفاته اليه ، من جهة ، واشارته فيه الى بعض كتبه المتواترة نسبتها اليه ، من جهة اخرى .

فهو في مقدمة كتاب « مفردات الفاظ القرآن » يشير اليه في قوله :

« واتبع هذا الكتاب (المفردات) ، ان شاء الله تعالى ونَسَأً في الاجل ، بكتاب ينبيء عن تحقيق الالفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة ، فبذلك يعرف اختصاص كل خبر بلفظ من الالفاظ المترادفة دون غيره من اخوانه ، نحو ذكره القلب مرة والفؤاد مرة والصدر مرة ، نحو ذكره تعالى في عقب قصة : « ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ، وفي اخرى ، « لقوم يتفكرون » وفي اخرى « لقوم يعلمون » ، وفي اخرى ، « لقوم يفقهون » ، ، وفي اخرى « لأولي الابصار » وفي اخرى « لذي حجر » ، وفي اخرى « لأولي النهى » ، ونحو ذلك مما يعدّه من لا يُحِقّ الحق ويُبطل الباطل انه باب واحد فيقدر انه اذا فسر « الحمد لله » بقوله « الشكر لله » و « لا ريب فيه » بـ « لا شك فيه » فقد فسر القرآن ووفاه التبيان » (٨) .

انه في مقدمة « المفردات » رسم خطة هذا الكتاب « لينبيء عن تحقيق الالفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينهما من الفروق الغامضة » ، اي ليوضح ما بين المفردات من فروق دقيقة يخيل للقارىء انها مترادفة على معنى واحد ، وذلك كما يمثل للقلب والفؤاد والصدر ، وكما يمثل للآيات « لقوم يؤمنون ، ولقوم يتفكرون ، وقوم يعلمون ويفقهون ، واولي الابصار ، واولي النهى ، وذي حجر » . وهي امثلة نافذة في ملاحظة الفروق الدقيقة بين الصيغ المتشابهة .

وهو ينجز ما يعد به ، وذلك في الآية (السادسة) في سورة المائدة قوله تعالى : « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون » وبعده « فأولئك هم الظالمون » وبعده « فأولئك هم الفاسقون » (٩) .

---

(٨) المطبعة الادبية ، القاهرة ١٣٠٦ هـ

(٩) المائدة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ .

ويضيف « وللسائل ان يسأل فيقول : الموضوع الذي وُصف فيه من لم يحكم بكتاب الله بالكفر هل باين الموضع الذي وُصف فيه من ترك حكم الله بالظلم والفسق » ؛ ثم يأخذ في الاجابة على هذا السؤال للتدليل على ان ثمة فروقا في المعنى بين هذه الآيات .

وكذلك يفعل في المسألة العاشرة من سورة الانعام ، في قوله تعالى : « قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون » والآية الثانية بعدها « وقد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون » والآية الثالثة « ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (١٠) .

وكذلك يفعل في مختلف مسائل آيات هذا الكتاب ، فهو يعدد الآيات المتشابهة في السورة او في السور ثم يثير الاسئلة عن الفروق المعنوية بينها ثم يجيب عليها .

اما اشارته في هذا المصنف نفسه ، اي درة التأويل، الى مصنفاته الاخرى ، فقد وردت في عرضه لما في سورة « الكافرون » : (قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا انتم عابدون ما أعبد . ولا انا عابد ما عبدتم ، ولا انتم عابدون ما اعبد ؛ لكم دينكم ولي دين) من تكرار ، اذ يقول على احدى صفحات مخطوطة « درة التأويل في متشابه التنزيل » :

« ان سأل سائل عن التكرار في هذه السورة فالجواب ان يقال انا قد اجبنا في « جامع التفسير » عن ذلك بأجوبة كثيرة، فنذكر منها واحدا في هذا الموضع ... وينهي اجابته بقوله : ... فلم يقع تكرار على هذا الوجه الآخر الذي ذكرنا في جامع التفسير » .

وحينما راجعت كتب الخطيب الاسكافي لم أجد فيها « جامع التفسير » هذا ، بل انه هو تفسير الراغب الموجود في مكتبة ايا صوفيا برقم ٢١٢ في استانبول وهو باسم « جامع التفسير » بعينه .

---

(١٠) الصفحة ١٢٥ من الكتاب المطبوع في بيروت والمذكور في النقطة (٢) منه

وبعد كل هذا فان نفس الراغب في هذا الكتاب واضح ، ذلك انه يغوص فيه،كما عودنا،في اعماق اللغة ، فيحدد ما بين المتشابهات من فروق تدق على الكثيرين ، ويستخدم الشعر في التمثيل على شرح بعض المعاني . ومن المهم ان نلاحظ ان الاشعار التي ترد عنده هنا قد ترد او يرد بعضها في مصنفاته الاخرى .

ومما يلفت الانتباه ان احدى مخطوطات الكتاب التي تحمل رقم ١٧٤٩/ر/١٨٣ (١١) ، يرويها احد الرواة ، ويذكر ان الاسكافي قد املاها :

« قال ابرهيم بن علي بن محمد المعروف بابن الفرج الاردستاني : « هذه المسائل في بيان الآيات المتشابهة لفظا بالعلام . . . املاها ابو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب في التلعة الفخرية » . اي ان مملیها هو الاسكافي ، لكنها مصنفة ، في المكتبة ، من مصنفات الراغب ! .

وهنا نتساءل عن قول ابن ابي الفرج الاردستاني « ان هذه المسائل قد املاها ابو عبد الله الخطيب »،وعن عبارة « املاها » على وجه التحديد ، فقد تعني انه قد املاها على الآخرين من انشائه هو ؟ ومعروف ان الشيخ يملي كتبه على تلاميذه ؛ وقد تعني ايضا ، انه قد اجيز باملائها من قبل مبدعها ومنشئها .

فهل يكون ابو عبد الله ، الخطيب الاسكافي ، قد حملها على الراغب واملاها على الناس ؟ وقد توفي الخطيب عام ٤٢٠ للهجرة، وعرف ان الراغب كان حيا في اوائل المئة الخامسة للهجرة (١٢) . هل املاها الاسكافي بعد ان انتحلها لنفسه ؟ ام نحله اياها آخرون ؟ .

انني افترض ذلك على الرغم من ان النصوص لم تسعفنا ، الى هذا الوقت ، بخبر عن لقاء تم بينهما بشكل مباشر او غير مباشر ، وذلك بالنظر لما سبق وبالنظر الى الامور التالية :

---

(١١) مكتبة السلطان احمد الثالث ، طوب قبوسراي باستانبول

(١٢) السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات النحاة ، مطبعة الخانجي ١٣٢٦ ص ٣٩٦ .

أ ـ عنوان الكتاب :

نسب الكتاب للراغب باسم « درة التأويل في متشابه التنزيل » في أغلب نسخ مخطوطاته المبيّنة في بداية هذا الحديث ، وان كان قد نسب اليه ببعض الاسماء الاخرى ، كما توضح ، اذ ذاك ، ايضا .

وقد يتفق اسم المصنف على هذا النحو مع ما جاء في ذكر الراغب له في مقدمة احد مصنفاته بقوله « كتاب ينبىء عن تحقيق الالفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة » ، فهو تأويل في متشابه التنزيل ، اي في ما نزل متشابها من آي القرآن الكريم . وبذلك يتناسب عنوانه مع مادته اكثر من تناسب العنوان الجديد « درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز » ، الذي نسب للاسكافي ، مع ما في هذا العنوان من طول لم يعرفه القرن الرابع او القرن الخامس .

ب ـ مقدمة الكتاب :

لقد قُدّم للكتابين بمقدمة تلتقي كلماتها وتراكيبها في بعض الاسطر ثم لا تلبث أن تختلف . ففي البداية التالية تبتدىء المقدمتان « اعلموا ، حَمَلَة الكتاب الحكيم وحُفّظة القرآن الكريم ، وفّقكم الله لحق علمه بعد حق تلاوته ، واذاقكم من (تأويله) ما يشغف قلوبكم بحلاوته ... » . وبعد ذلك تختلفان ، فنقرأ في مخطوطة « درة التأويل في متشابه التنزيل » حديث الراغب عن « خلوة اتفقت له فسطا على وحشتها بالقرآن ، وكانت خلوة عين لا خلوة قلب ، واضطرارا لا عن اختيار » ، في حين نقرأ في الكتاب المطبوع « درة التنزيل وغرة التأويل » عبارات لم نألفها في احاديث الراغب عن نفسه من مثل قوله « ففتقت من اكمام المعاني ما أوقع فرقانا » وقوله « جردت لحرب اشكالها مبردا » اذ قلما تحدّث الراغب بضمير المتكلم ، وإن تحدث فبتواضع العلماء ورزانتهم .

ان هـذا في المقدمة في بدايتها يدل ، فيما احسب ، على ان للمصنّف صاحبا هو الاول والمصنِّف الحقيقي ، وأما الاختلاف الجاري فيما بعد ، والذي فيه ما يُبْعِد عما عرفنا من اخلاق الراغب ، فلعلّه يدلّ على وقوع الانتحال فيها ، فيما بعد ؛ ومن هنا جاءت محاولات طبعها بطوابع المنتحلين الجدد لها للمصنف ، بأسره ، بعدها .

ثم ان في بداية المقدمة نفسها ما يحمل على الشك فيها ؛ اذ انها تفتتح على النحو التالي : « الحمد للّه رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم ، اما بعد ... » . ان الراغب لا يطيل في افتتاحياته لمقدمات مصنفاته ، فهو لا يزيد عن حمد الله بجملة دعائية قصيرة كقوله « رُبَّ يَسِّرْ ولا تُعَسِّرْ » ، وقوله « حسبنا الله ونعم الوكيل » او امثالهما ؛ ثم انه لم يستخدم « اما بعد » ، فيما اعرف ، على الاطلاق ! ولعل هذا ينهض دليلا آخر على ان المقدمة قد دخلها التحوير حينما امتدت الايدي الى المصنف بالانتحال .

جـ ـ رواية الاردستاني :

لعل ما قدم به رواية الكتاب للافتتاحية التي نسبها للاسكافي واقتطفنا بعضها في الفترة السابقة ، لعلها تحمل في نفسها بعض ما يحمل على الشك في صحتها . يقول : « قال ابرهيم بن علي بن محمد ، المعروف بابن الفرج الاردستاني ، رحمه الله ، : هذه المسائل بيان الآيات المتشابهة لفظا بأعلام نصبت عليها من المعنى ، املاها ابو عبد الله ، محمد بن عبد الله ، الخطيب ـ رحمه الله تعالى ـ في القلعة الفخرية املاء لما خلافيها ولم يحضره غيري ممن يسوغ له حمل ما يكتب فيه ويكتب به ، فكتبت عن لفظه المسائل والاجوبة ، وسألته ان يصدِّرها بخطبة فارتجلها كارتجاله سائر الكلام بعدها ، والله إعان ويسر وله الحمد » .

ان الراوية ـ الاردستاني ـ في هذا التقديم ، يذكر انه لم يحضر الاملاء الا هو ممن يستطيعون حمل الرواية والقيام باعبائها .

ولا ادري سببا لهـذه الحيطة الزائدة في عـدم اشراك غيره من الرواة في السماع . وهو بذلك يقرب من خبر الآحـاد في الحديث ، ولعله كان اقرب الى الروح العلمية لـو أن غيره حضر الاملاء والرواية وشهد بذلك .

ثـم انـه يروي أن الخطيب قد ارتجل واملى من حافظته مقدمـة الكتاب ، وليس في ذلـك غضاضة ، لكنه يروي انـه ارتجلها « كارتجاله سائر الكلام بعدها » ، أي انـه بذلك ، يكون قد ارتجل مـادة الكتاب كله ؛ وهي ما عبر عنـه قبلها « بالاسئلة والاجوبة » ؛ ولعل مـن يعرف حجم هذا المصنف يجـد صعوبة في قبول خبر الاملاء هذا عـن طريق الذاكرة والارتجـال .

د ـ التمهيد للمسائل في مـادة الكتاب :

يجـد المطالع للمخطوطة ونُسَخها المنسوبـة للراغب،وللكتـاب المطبوع منسوبا للخطيب،اختلافا بينهما في التمهيد للبـدء في اظهار الفروق بين الآيات المتشابهة . فلدى التعرّض ، مثلا ، لمـا بين بعض الآيـات في سورة الرحمن ، من تشابـه في الفواصل ولاظهار عـدم التكرار في معاني هذه الفواصل ، يفتتح الراغب حديثه على النحـو التالي :

الآيـة الاولى : قوله تعالى « والسماء رفعها ووضع الميزان ، الا تطغوا في الميزان ، واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » ... (الآيـة) ؛ لِمَ أعاد ذكر الميزان ثلاث مرات آخر هذه الآي »؟(١٣) .

أمـا فيما ينسب لمحمـد بن عبد الله ، الخطيب (الاسكافي) ، فالبداية رغم تقاربها الشديد مع هـذه البداية،الا انها اصطنعت صيغـة معينة تستخدمها في كـل البدايات ، وتتضح فيما يلـي :

الآيـة الأُولى : قوله تعالى : « والسماء رفعها ووضـع الميزان ، الا تطغوا في الميزان ، واقيموا الوزن بالقسـط ولا تخسروا

---

(١٣) أسرار التاويل وغرة التنزيل ، للراغب ، مخطوط ، رقم (٧ تفسير) ، معهد المخطوطات التابـع لجامعة الدول العربية

الميزان » ، للسائل ان يسأل لِمَ كرر (وفي بعض النسخ من اعادة) لفظ الميزان ثلاث مرات في اواخر هذه الآي »؟(١٤) .

والصيغة كما يبدو هي « للسائل ان يسأل » فهو يكررها في بدء شرح كل مسألة بعد ذكر الآيات التي توهم بالتكرار .

والتزام الصيغة الواحدة في التأليف ، إن دلَّ على وحدة الشخصية المؤلفة،وعلى ثبات الطريقة في التأليف ، فهو قد يدلّ ، ايضا ، على لون من التكلف ولزوم ما لا يلزم .

هـ ـ مادة الكتاب :

وبعد ، فان كل ما مرّ بنا من دلائل على الشك في نسبة كتاب « درة التأويل في متشابه التنزيل » الذي صنّفه الراغب الاصفهاني ، لمصنّف آخر ، هو محمد بن عبد الله الخطيب الاسكافي ، كل هذه الدلائل لا تناهض الا بحجة اخرى قد تزنها جميعا ، وهي تلك التي تأتي من مادة الكتاب ونسيجه الاساسي .

والواقع ان مقابلة ما يُنسب للراغب من هذا الكتاب بما يُنسب للخطيب واثباته هنا لن يعدو اثبات النص الواحد مرتين (١٥) ، لا اختلاف بينهما الا ما عرضنا له في التمهيد لمسائل الكتاب ، من التزام الخطيب بصيغة « للسائل ان يسأل » وعدم التزام الراغب لصيغة معينة . وربما لَحِقَ أعمال الراغب ، في هذا الكتاب ، بعض الحذف ، فبدت بعض المسائل في بعض السور اقلّ مما كانت .

---

(١٤) « درة التنزيل وغرة التأويل » المنسوب للخطيب الاسكافي رقم (١٣٣ تفسير) ، معهد المخطوطات ، وكذلك في الكتاب المطبوع بهذا الاسم ، عن دار الآفاق البيروتية ص ٤٦١ . أما الخطوطات السابقة فهي مرقمة الصفحات .

(١٥) ولسهولة التأكد من ذلك يمكن المقابلة بين المخطوطتين المذكورتين في الهامش السابق ، وهما رقم (٧ تفسير) ورقم (١٣٣ تفسير) في معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية .

والاطرف ، بعد هذا كلـــه ، أن ناحل كتاب الراغب أو منتحلـــه قـــد غفل ان يحذف منه مـــا يدمغه بعمله هذا دمغا ، حينما نســـي أن يسقط الاشـارة الى « جامـــع التفسير » (١٦) التي يشير الراغب بهـــا في كتابه هذا « درة التاويل في متشـابه التنزيل » الـــى تفسيره الذي يحدثنا عنه في مكانه من آثـــاره .

---

(١٦) وهو ما ذكرنا أنه ورد في سورة (الكافـــرون) في الكتاب الذي نحاول تصحيـــح النسبة الـــى مصنفة .